الأم البيضاء

للكاتب الروسي تيودور سولوجب

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

اقترب عيد القيامة ، وقد أصبح « إيسبر كونستانتينوفتش ساكساولوف » قلق النفس متعباً ، منذ اللحظة التي سئل فيها — وهو في بيت جورووديشيف : « أين تقضي ليلة العيد ؟ »

ولأمر ما أبطأ ساكساولوف في الإجابة على هذا السؤال

فقالت ربة الدار ، وهي سيدة ممشوقة القوام ، ضعيفة البصر ، ثرثارة : « تعال فاقض ليلة العيد عندنا »

واضطرب ساكساولوف ، فهل كان اضطرابه من حركة الفتاة التي ما سمعت كلمات أمها حتى رمقته بنظرة خاطفة ، ثم لم تلبث أن حولت عنه نظرها مسرعة ، وهي مستمرة في التحدث إلى الشاب مساعد الأستاذ ؟

وكان ساكساولوف فتى « مناسباً » في نظر أمهات الفتيات الناهدات ، وكانت هذه الحقيقة من أسباب حيرته وضيقه ، فقد كان ينظر إلى نفسه كأعزب عجوز وإن لم يكن قد جاوز السابعة والثلاثين من سني حياته . ولقد أجاب على دعوة السيدة بقوله :

« أشكر لك كرمك ياسيدتي ، ولكنني دائماً أقضي هذه الليلة في بيتي »

فنظرت الفتاة إليه وابتسمت وقالت : « مع من ؟ »

فأجاب ساكساولوف وفي صوته أثر دهشة خفيفة : « وحيداً »

فقالت السيدة جورووديشيف وقد ابتسمت ابتسامة مرة :

« يالك من عدو للبشر ! »

لقد كان ساكساولوف راضياً بحياة الحرية التي يحياها ، ولقد كان في بعض المناسبات يسأل نفسه متعجباً كيف أوشك مرة أن يتزوج ! فلقد أصبح الآن ألوفاً لبيته الصغير المؤثث على طراز جدي ، مستأنساً بخادمه الخاص الشيخ الرزين « فيدوت » وبامرأته « كريستين » التي لاتقل عنه شيخوخة والتي كانت تطهي له غذاءه . وكان مقتنعاً جد الاقتناع بأنه لم يتزوج لأنه أراد أن يعيش وفياً لحبه الأول . وفي الحق أن قلبه قد برد من أثر ما تعود من عدم الاكتراث الناشئ من حياته المنعزلة التي لاترمي إلى غاية معينة

كان ساكساولوف ذا ثروة مستقلة ، فقد مات أبواه من زمن بعيد ولم يكن له من أقارب على الاطلاق . فكان يعيش عيشة مأمونة رخية هادئة ، وقد اتصل ببعض النتديات المشتغلة اشتغالاً جدياً

بالآداب والفنون العصرية . وكان يهتم اهتماماً ابيقوريا بكل شئ حسن فى الحياة ، بينما الحياة نفسها كانت فى نظره فارغة خالية من المعنى . ولولا حلم وحيد يهيج برئ كان يتراءى له بعض الأحيان ، لأصابه الجمود التام الذى أصاب كثيرين غيره من الناس

— ٢ —

لقد كان حبه الأول الوحيد ، الذى انتهى قبل أن يزهر ، يبعث أحياناً إلى مخيلته فى الليل أحلاماً حلوة حزينة ، وكان قد التقى من قبل خمس سنوات بالفتاة الصغيرة التى خلفت فى نفسه ذلك الأثر الدائم . وكانت فتاة باهتة اللون ، رقيقة ، هيفاء الخصر ، زرقاء العينين ، شقراء الشعر ، وكانت تتراءى فى نظره كمخلوقة سماوية ، مصنوعة من هواء ودخان ، ألقى بها القدر اتفاقاً إلى ضوضاء المدينة فترة قصيرة من الزمن . وكانت بطيئة الحركة وكان فى صوتها الواضح الحنون نعومة تشبه خرير ماء النهر المنحدر فى لطف على الصخور

وكان ساكساولوف يراها دائماً فى لباس أبيض — ولا ندرى إن كانت هى المصادفة التى قضت بذلك أم كان من عادتها لبس البياض — فانطبع أثر البياض فى نفسه لايفارق تفكيره فيها ، حتى اسمها « تمارا » كان يبدو له دائماً أبيض كالثلج على قمم الجبال

وشرع ساكساولوف يزور والدى تمارا وفى أكثر من فرصة اعتزم أن يحدثها بتلك الكلمات التى تربط إنساناً بحظ إنسان سواه . ولكنها كانت دائماً تروغ منه ، وقد فاضت عيناها بأظهر معانى الخوف والألم . فأى شئ كانت تخاف ؟ وكان ساكساولوف يرى فى عينيها أمارات الحب الصبى ، إذ كان يبدو فيهما بريق لطيف كلما رأته ، وكانت وجنتاها تصطبغان بالحمرة الخفيفة

ولكن فى ليلة لن تنسى ذكرياتها أبداً ، أصغت الفتاة إليه وكان ذلك فى طليعة أشهر الربيع ، ولم يكن قد مضى وقت طويل على ذوبان الجليد فوق النهر وعلى اكتساء الأشجار أثوابها الخضراء الناعمة ، وقد جلست تمارا وساكساولوف فى إحدى الحجرات أمام نافذة تشرف على نهر النيڤا ، ودون أن يتعب الفتى نفسه فى البحث عما يقول ، وعن وسيلة قوله نطق ببضع كلمات عذبة ولكنها أزعجتها ، فبهت لونها وابتسمت ابتسامة شاردة ، ووقفت ، وكانت يدها الرقيقة ترتجف وقد أسندتها إلى مسند الكرسى المنقوش

وقالت الفتاة فى صوت ناعم رقيق : « غداً »

ثم انصرفت

وجلس ساكساولوف برهة طويلة ، وقد ملكت اللهفة نفسه ، يرقب الباب الذى اختفت وراءه تمارا واستولى على رأسه دوار لا يهدأ ، واسترعى نظره غصن من زهر الليلق الأبيض ؛ فتناوله وترك البيت من غير أن يقرئ أهله السلام

وفى الليل لم يغمض له جفن ولا عرف الكرى الطريق إلى عينيه . فوقف فى النافذة ينظر إلى الطريق المظلم الذى أخذ ظلامه ينقشع رويداً كلما اقترب الصباح ، وقف يبتسم وهو يعبث بذلك الغصن من الليلق الأبيض ، فلما أشرق الصباح رأى أن أرض الغرفة قد غطيت كلها بأوراق ذلك الزهر الجميل . وقد بدا له ذلك الأمر ساذجاً مضحكا ، ثم استحم فشعر كأنما قد استجمع حواسه المشردة ، وترك البيت قاصداً بيت تمارا

وهناك خبروه أنها مريضة ، فقد أصابتها رجفة من برد فى ناحية ما ، ولم ير ساكساولوف الفتاة قط بعد ذلك اليوم . فقد ماتت بعد أسبوعين ، ولم يحضر جنازتها ، ومرّ موتها لم يحدث فى نفسه هزة ولا صدمة ! ولم يكن فى مقدوره أن يميز ما شعر به نحوها أكان حباً أم كان مجرد افتتان قصير المدى طائر

وكان فى بعض الأمسيات يتخيلها أمامه ، ثم لا يلبث خيالها أن يتلاشى ، ولم يكن محتفظاً بصورة من صورها . ومرت سنوات عديدة . وفى أيام الربيع الماضى ذكر ساكساولوف تمارا ، ذكره بها غصن من الليلق الأبيض فى شرفة أحد المطاعم وقد وضع — كئيباً — فى غير موضعه ، بين صنوف الطعام الدسم ، ومن ذلك اليوم عاد يستعذب التفكير فى تمارا فى ساعات المساء ، وكان إذا غفا بعض الأحيان رآها قد أقبلت فجلست أمامه ونظرت إليه نظرة ثابتة تفيض وداعة وتدللا وكأنما تريد أن تطلب منه شيئاً . وكان مما يضغط صدره ويؤلمه أحياناً أن يحاول إدراك ما تبتغيه تمارا بهذه النظرة التوسلية

وفى هذه الليلة عند ما غادر بيت جورودیشیف فكر على عجل وقال فى نفسه : « ستأتى فتحيينى تحية العيد »

وكان الخوف والوحدة قابضين لنفسه فساءل نفسه مفكراً :

« لماذا لا أتزوج ؟ يجب ألا أكون وحيداً فى ليالى الأعياد الالهية »

ومرت فى مخيلته صورة ڤاليريا ميشايلوفنا — فتاة آل جورودیشیف — ولم تكن الفتاة جميلة ولكنها كانت دائماً متأنقة فى لباسها ، وخيل إلى ساكساولوف أنها تميل إليه وأنها لن ترفض يده إذا هو تقدم لها خاطباً

وفى الطريق شتتت الضوضاء والزحام آراءه فامتزج تفكيره فى أسرة جورودیشیف بما يصل إلى أذنيه من صخب الجمهور ونكاته . على أنه هل يستطيع أن ينكث بوفائه لذكرى تمارا إكراماً لأى مخلوق سواها ؟ لقد خيل إليه أن العالم كله شىء تافه حقير عادى ، حتى أنه تلهف إلى تمارا — وإلى تمارا وحدها — لتأتى فتحييه تحية عيد القيامة

ثم عاد يحدث نفسه مفكراً :

« ولكنها ستحدجنى مرة أخرى بهذه النظرة التوسلية ، ترى ماذا تريد تمارا الطاهرة الرقيقة ؟ ترى تقبل شفتاها الناعمتان شفتى الظامئتين ؟

— ٣ —

وهام ساكساولوف فى الطرقات على غير هدى ، يفكر فى تمارا تفكيراً موجعاً ، يحدق فى وجوه المارة ، فيتأفف مما يرى من خشونة بادية على وجوه الرجال ووجوه النساء على السواء . وتبين أن ليس بين جميع هذه الوجوه وجه واحد يستطيع أن يتبادل وإياه تحية عيد القيامة ممزوجة بفرحة الحب ؛ وسيشهد اليوم الأول من أيام العيد كثيراً من القبلات تتبادلها الشفاه الخشنة وتتحرك لها اللحى المعقدة وتشوبها رائحة الخمور .

فإذا كان لا معدى له من أن يقبل إنساناً ما فليقبل طفلا . وقد بدأ ساكساولوف تسره رؤية وجوه الأطفال

ومضى الرجل يضرب فى الأرض وقتا طويلا ثم بدأ التعب ينال منه فقصد إلى فناء كنيسة فيما وراء الشارع الصاخب بضجة الناس . وارتفعت إلى وجه ساكساولوف عينا طفل جالس على أحد المقاعد وقد تجلى الخوف فى نظرته ، ثم قبع جامداً لا يتحرك شاخصاً ببصره إلى الأمام لا يحوله يمنة ولا يسرة .

وكانت عيناه الزرقاوان لطيفتين تشعان ببريق حزن الطفولة ، فهما أشبه الأعين بأعين تمارا . وكان الطفل ضئيل الجسم حتى أن قدميه لم تكونا لتتدليا على الأرض فمدتا إلى الأمام فى خط مستقيم . فجلس ساكساولوف إلى جانبه ونظر إليه فى حنان ولهفة ، فقد كان فى منظر ذلك الطفل الوحيد ما يثير فى نفسه ذكريات جمة العذوبة ؛ على أنه كان طفلا عادى المنظر فى ثياب ممزقة مهلهلة ، على رأسه الأشقر الصغير قبعة من الفرو الأبيض ، وفى قدميه نعلان قذران باليان .

جلس الطفل على المقعد جامداً فترة طويلة ثم وقف واندفع يبكى بكاء موجعاً ، وجرى فى الفناء حتى تجاوز الباب وصار إلى الطريق العام ، وهناك وقف مرة أخرى . وكان بادياً أنه لا يعرف فى أى طريق يتجه . فبكى بكاء خافتاً كأنما يسر شجاه إلى نفسه لا يريد أن يطلع عليه أحداً من الناس . فكانت قطرات الدمع تنحدر كبيرة على خديه . فازدحم الناس حوله ، وأقبل عليه رجل من رجال الشرطة ، وسأل الطفل أين يسكن فأجاب فى لثغة الطفولة القاصرة :

« فى دار جليكهوف »

فسأله رجل الشرطة :

« فى أى شارع ؟ »

ولكن الطفل لم يعرف اسم الشارع وكرر قوله « فى دار جليكهوف »

وكان رجل الشرطة شاباً مرحاً ففكر لحظة ثم أيقن أن ليس هناك مكان بهذا الاسم فى الجوار القريب .

ودنا عامل عابس الوجه من الطفل وسأله :

« مع من تعيش ؟ أليس لك أب ؟ »

فأجاب الطفل وهو ينظر إلى الجمع المحيط به بعينين تفيضان بالدموع :

« لا ، ليس لى أب »

فقال العامل فى خشوع وهو يهز رأسه :

« ليس لك من أب أيها العزيز ! فهل لك من أم ؟ »

فأجاب الطفل :

« نعم لي أم »

« ما اسمها ؟ »

فأجاب الطفل :

« اسمها أمى »

ثم فكر قليلا وقال :

« الأم السوداء »

فقال العامل العابس :

« السوداء ؟ هل هذا هو اسمها ؟ »

فقال الطفل شارحاً :

« لقد كان لى أولا أم بيضاء ، والآن لى أم سوداء »

فقال رجل الشرطة آخر الأمر وقد استقر على رأى :

« حسن يا ولدى ، إننا لن نعرف منك كثيراً ولا قليلا ، فالأحسن أن آخذك إلى مركز البوليس وهناك يستطيعون عن طريق التليفون أن يعرفوا أين تسكن »

وقصد رجل الشرطة إلى أحد الأبواب ودق الجرس ، وفى هذه اللحظة رآه أحد البوابين فأقبل عليه حاملاً المكنسة فى يده ، فطلب منه الشرطى أن يأخذ الطفل إلى مركز البوليس ، ولكن الطفل تأمل قليلاً ثم صاح باكياً :

« دعنى أذهب فسأعرف الطريق وحدى ! »

ترى هل انزعج الطفل من مكنسة البواب ، أم تراه حقاً قد تذكر الطريق ؟ على أى الحالين جرى الطفل مسرعاً حتى كاد يغيب عن نظر ساكساولوف ؛ غير أن الطفل لم يلبث أن أبطأ خطاه ، وقد اتجه مع الطريق صعداً يجرى من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر محاولاً عبثاً أن يهتدى إلى البيت الذى يسكن فيه . وتبعه ساكساولوف فى سكون وصمت ، ولم يكن يعرف كيف يتحدث إلى الأطفال

وأحس الطفل آخر الأمر بالتعب ، فوقف إلى جانب عمود من أعمدة المصابيح واتكأ عليه وترقرقت الدموع فى عينيه .

فبدأ ساكساولوف يحدثه فقال :

« حسن يابنى ، ألا تستطيع أن تتعرف البيت ؟ »

فنظر إليه الطفل بعينيه الحزينتين اللطيفتين ، وعلى حين فجأة أدرك ساكساولوف السبب الذى أغراه بأن يلح فى تتبع خطوات الغلام

ففى نظرة التائه الصغير وسيمائه شىء يشبه ما فى نظرة تمارا وسيمائها أكمل الشبه

فسأله ساكساولوف فى لطف ورقة :

« ما اسمك يا عزيزى ؟ »

فأجاب الطفل :

« اسمى ليشع »

« أتعيش مع أمك يا ليشع ؟ »

« نعم مع أمى ، ولكنها أم سوداء ولقد كانت لى أم بيضاء »

فظن ساكساولوف أن الطفل لا شك يقصد بالأم السوداء إحدى الراهبات

« وكيف ضللت الطريق ؟ »

« لقد مشيت مع أمى ، ومشينا ومشينا . ثم طلبت منى أن أجلس وأنتظر ، ومضت بعد ذلك مبتعدة عنى . فأصابنى الخوف والجزع »

« ومن هى أمك ؟ »

« أمى ؟ إنها سوداء غضوب »

« وماذا تصنع أمك ؟ »

ففكر الطفل لحظة ثم قال :

« إنها تشرب القهوة »

« وماذا تفعل غير ذلك ؟ »

فتوقف ليشع لحظة عن الكلام ثم قال :

« تتشاجر مع المستأجرين »

« وأين أمك البيضاء ؟ »

« لقد حملوها بعيداً . وضعوها فى نعش ثم حملوها بعيداً . وأبى أيضاً قد حملوه بعيداً »

وأشار الطفل بيده إلى الفضاء البعيد ثم انفجرت عيناه بالدموع

فساءل ساكساولوف نفسه مفكراً :

« ترى ماذا أستطيع أن أعمل لهذا المسكين ؟ »

ثم إذا الطفل ينطلق جاريا . وبعد أن اجتاز عدة شوارع عرضية أبطأ خطاه مرة أخرى ، وكذلك التقى به ساكساولوف مرة ثانية . وكان المعنى الذى لحظه على وجه الطفل خليطاً من الفرح والخوف ، وقد قال لساكساولوف وهو يشير إلى بيت كبير قبيح المنظر ذى خمس طبقات :

« هذه هى دار جليكهوف »

وفى هذه اللحظة ظهرت على عتبة باب دار جليكهوف امرأة سوداء الشعر ، سوداء العينين ، ترتدى لباساً أسود ، وعلى رأسها منديل أسود فيه نقط بيضاء ، فلما رآها الطفل تراجع خائفاً وقال هامساً :

« أمى ! »

فنظرت إليه المرأة — وهى امرأة أبيه — نظرة الدهشة وصاحت :

« كيف جئت إلى هنا أيها الشقى ، ألم أطلب منك أن تبقى على المقعد ؟ »

وكادت المرأة تنهال ضرباً على الطفل المسكين لولا أن رأت سيداً محترم المنظر يرقبها عن كثب ، فخفضت صوتها وقالت :

« ألا يمكن أن تنتظر نصف ساعة دون أن تهرب ؟ لقد تعبت فى البحث عنك أيها اللعين ! »

ثم قبضت بيدها الغليظة على يد الطفل الصغيرة وجذبته بعنف إلى داخل الدار

فتعرف سا كساولوف الشارع والدار ثم انصرف

— ٤ —

كان سا كساولوف يحب الإصغاء إلى نصائح خادمه فيدوت الرزينة الحكيمة ، فلما عاد إلى بيته أخبره بقصة الطفل ليشع ، فقال فيدوت :

« لقد تركته المرأة عمداً حيث وجدته أنت . فيالها من امرأة خبيثة تذهب بالطفل إلى هذا المكان النائى عن الدار »

فسأله سا كساولوف :

« وما الذى يحملها على أن تفعل ذلك ؟ »

« لا أستطيع أن أعرف ، ولكن لاشك فى أن هذه البلهاء قد قدرت أن الطفل سيهيم فى الشوارع حتى يلتقطه بعض الناس . وماذا تتوقع من امرأة الأب ؟ وأية فائدة تجنيها من بقاء الطفل عندها ؟ »

فقال سا كساولوف :

«ولكن كان فى مقدور البوليس أن يعثر عليها»

« وذلك جائز ، ولكن قد تكون معتزمة مغادرة البلدة كلها ، وإذن كيف يستطيعون أن يقتفوا آثارها ؟ »

فابتسم سا كساولوف وقال يحدث نفسه :

« هذا حق ، وكان يجب أن يكون فيدوت قاضى تحقيق »

وجلس سا كساولوف على مقربة من المصباح وفى يده كتاب ، فلم يلبث أن أغفى ، فرأى فى الحلم تمارا — رقيقة بيضاء — أقبلت عليه وجلست إلى جانبه ، وكان وجهها يشبه وجه ليشع شبهاً مدهشاً وقد نظرت إليه نظرة ثابتة ملحة كأنما تنتظر منه شيئاً . وكان مما يؤلم سا كساولوف أن يرى عينيها البراقتين المتوسلتين على هذه الصورة ولا يستطيع أن يدرك ما تريد . فهب فجأة من مكانه وأسرع إلى الكرسى الذى خيل إليه أن تمارا جالسة عليه ، حتى إذا وقف أمامه قال متوسلا فى صوت مرتفع :

« خبرينى ماذا تريدين ؟ »

ولكن خيالها تلاشى من أمامه

فقال سا كساولوف فى نفسه وقد استولى عليه الحزن :

« لم يكن ذلك إلا حلماً »

— ٥ —

وفى اليوم التالى بينما كان سا كساولوف خارجا من معرض المجمع العلمى التقى فى الطريق بآل جورودیشیف فأخبر الفتاة بقصة الطفل ليشع

فقالت فاليريا ميشايلوفنا فى صوت رقيق :

« يا له من طفل مسكين ! إن امرأة أبيه تريد أن تتخلص منه »

فقال سا كساولوف وقد أزعجه أن تتفق الفتاة

وفيدوت فى استنتاج هذه النتيجة الفاجعة من ذلك الحادث البسيط :

« ليس هناك ما يؤكد هذا الاستنتاج »

« الأمر واضح كل الوضوح فالطفل لا أب له فهو يعيش مع امرأة أبيه ، وهي تجد فى بقائه عندها عبئاً ثقيلا عليها ، فإذا لم تستطع أن تتخلص منه بوسيلة غير جافة فلا شك فى أنها ستطرده فى قسوة لتتخلص منه نهائياً

فابتسم ساكساولوف وقال :

« إنك تنظرين إلى هذا الأمر نظرة جد عابسة »

فسألته فاليريا ميشايلوفنا :

« لم لا تتبنى هذا الطفل ؟ »

فسألها ساكساولوف فى دهشة :

« أنا ؟ »

فقالت فى شىء من الالحاح :

« إنك تعيش وحيداً ، وليس لك من أقرباء ، فلتعمل عملا طيباً فى عيد القيامة ، وعندئذ تجد معك من تبادله تحية العيد على كل حال »

« ولكن ماذا أستطيع أن أعمل بطفل ؟ »

« جئه بمربية . والذى يبدو لى أن القدر قد قد ساق هذا الطفل فى طريقك لتتبناه »

ونظر ساكساولوف إلى وجه الفتاة الحنون وقد علته حمرة طفيفة ـ نظرة ملؤها الدهشة ، وقد تجلى فى عينيه من معانى العطف ما لم يقصد إليه

ولما تراءت له تمارا هذه الليلة فى منامه بدا له أنه قد فهم ما تريد . وقد سمع فى سكون الغرفة هذه الكلمات واضحة ناطقة :

« إعمل بما طلبته منك فاليريا »

وهب ساكساولوف من نومه فرحاً وهو يبده على عينيه الناعستين ، فوقع نظره على غصن من الليلق الأبيض فوق المائدة . فساءل نفسه : من أين جاء ذلك الغصن؟ هل تركته تمارا شاهداً على رغبتها

وخطر له فجأة أنه بزواجه من فتاة آل جورودیشیف وتبنيه الطفل ليشع يكون قد حقق رغبة تمارا . فتنفس تنفس الارتياح وسط الشذى العطرى المنبعث من غصن الليلق الأبيض

ثم ذكر أنه هو الذى أحضر ذلك الغصن بنفسه فى ذلك اليوم ، ولكنه لم يلبث أن قال فى نفسه : « إن ذلك لا يغير من جوهر الأمر شيئاً فليس تفكيرى فى مشتراه وإحضاره إلى البيت ونسيانى بعد ذلك أننى اشتريته إلا حقيقة واقعة تشير إلى رغبة تمارا »

— ٦ —

وفى الصباح قصد ساكساولوف إلى حيث يجد ليشع ، فقابله الطفل على الباب وأراه مسكنه وكانت امرأة أبيه جالسة تشرب القهوة وتتنازع مع المستأجر الأحمر الأنف ، وإليك ما استطاع ساكساولوف أن يعرفه من أمر ليشع :

ماتت أمه وهو فى الثالثة من عمره ، فتزوج أبوه من هذه المرأة السمراء ولكنه مات فى السنة نفسها ، وللمرأة السمراء ايرينا ايفانوفنا طفل من صلبها فى السنة الأولى من عمره ، وكانت على وشك الزواج من زوج جديد ، وستقام حفلة الزواج بعد أيام قليلة ، وستذهب هى وزوجها على أثر ذلك إلى الريف ، وكان ليشع غريباً بالنسبة إليها وهو بذلك عقبة فى طريقها :

فقال ساكساولوف :

« أعطنيه »

فقالت إيرينا إيفانوفنا وقد شعرت بسرور خبيث

« يسرني أن أجيب طلبك »

وبعد أن توقفت لحظة قالت :

« إنما يجب أن تدفع لي ثمن ملابسه »

وهكذا آوى ليشع إلى ساكساولوف وساعدت فتاة آل جورودیشیف فی الحصول على مربية صالحة وفي إعداد كل مايلزم لإقامة الطفل . وتحقيقاً لهذه الغاية كانت تزور بيت ساكساولوف ، وقد بدت في نظر رب الدار ، وهي منهمكة في عملها هذا ، انسانة مغايرة للتي عرفها من قبل ، وكأنما قد فتح له باب قلبها ، وشعت عيناها ببريق اللطف والصفاء وأنس فيها جملة ما كان يأنس في تمارا من رقة ووداعة

— ٧ —

تأثر فيدوت الخادم العجوز وامرأته مما كان ليشع يروي لهما عن أمه البيضاء ، وفي يوم سبت النور عند ما أرقداه في فراشه علقا في نهاية السرير بيضة من السكر بيضاء وقالت له كريستين :

« هذه البيضة من أمك البيضاء ، ولكن يجب ألا تمسها يا عزيزي إلا بعد قيام المسيح ودق النواقيس »

فرقد ليشع مطيعاً وبقي فترة طويلة محدقاً في البيضة الجميلة ، ثم غلبه النوم

وفي هذا المساء جلس ساكساولوف في البيت وحيداً ، وحوالي منتصف الليل تغلب عليه شعور بالنعاس لم يكن في مقدوره أن يقاومه ، فأغمض عينيه مسروراً لأنه قد يرى تمارا بعد قليل . ولقد جاءته مرتدية البياض مشرقة جالبة معها عن بعد أصوات النواقيس السارة ، وانحنت تمارا على ساكساولوف وعلى شفتيها ابتسامة لطيفة وفي عينيها نظرة الابتهاج ! وأحس ساكساولوف بلمسة رقيقة على شفتيه ، وسمع صوتاً ناعماً يقول في لطف :

« المسيح قام ! »

ومد ساكساولوف من غير أن يفتح عينيه ، ساعديه فعانق جسماً صغيراً لطيفاً . وكان الذي عانقه هو ليشع الطفل الذي تسلق على ركبتيه ليحييه تحية العيد

فقد أيقظت نواقيس الكنائس الطفل ، فأمسك بالبيضة البيضاء وأسرع إلى ساكساولوف واستيقظ ساكساولوف فضحك ليشع ورفع البيضة أمام عينيه وقال :

« لقد أرسلتها لي أمي البيضاء ، وأنا أعطيها إياك لتعطيها للخالة فاليريا »

فأجابه ساكساولوف :

« حسن ياعزيزي ؛ سأفعل ما تريد »

وأعاد ساكساولوف ليشع إلى فراشه ثم قصد إلى فاليريا ميشايلوفنا يحمل لها البيضة هدية من الأم البيضاء ، ولكن خيل لساكساولوف في هذه اللحظة أنها هدية من تمارا

عبد الحميد حمدي

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً